شاعر الفلسفة وفيلسوف الشعراء

أبو العلاء المعري

-٢-

الحالة الاقتصادية والدينية في عصره

بقلم : الاستاذ شمس الدين الخطيب

الحالة الاقتصادية :

يقوم التقدم الاقتصادي واستقامته في بلد من البلدان إلا على ثلاث دعائم هن أم الرفاه والسعة وهذه هي السلم والعدل والأمن . فالسلم : يفتح طريق المواصلات ويؤمنها ويمنحها الهدوء والاستقرار . وقد شاهد الكل منا اضطراب الحياة الاقتصادية بسبب الحرب العالمية الثانية . وكيف أن تقطع السبل أدى إلى بلبلة الحياة الاقتصادية . فأهلك الطبقة العامة من المواطنين من ذوي الدخل المحدود والذين هم أكثرية الشعب والأمة .

والعدل : كما يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) « أساس به قوام العالم » فحيث تسود العدالة ويعم الانصاف وترتقي الأخلاق وتكفل الحقوق . يسود الرخاء وتعم السعة والخصب ومن ثم تتقدم الحياة الاقتصادية وينعم الناس في ظلالها

والأمن : نعمة من نعم الله لا يعرف قدرها إلا بأفتقادها وهو نتيجة للعدل فلا أمن إن لم يكن هنالك عدل وإذا أمنت السبل دار دولاب الحياة الاقتصادية فتنقل البضائع وتصرف وتستبدل مما يؤدي حتما إلى الرفاهية والرخاء . ولنعد الآن إلى عصر أبي العلاء نتحر عناصر التقدم الاقتصادي هذه فيه فاننا لنجدها معدومة أو تكاد .

فالسلم والحروب قائمة ونيران الفتن مشتعلة تتوالى وتتعاقب والخليفة العباسي مستضعف تتقسم مملكته ملوك الطوائف وأمراء الاقطاع مما جزء البلاد إلى دويلات متناحرة متخاصمة يأكل قويها ضعيفها ويعزيزها ذليلها .

ولا عدل لأن هذه الدويلات أو الامارات (إن شئت فقل) كانت قد شغلت نفسها بالحروب الخارجية والفتن الداخلية ودول هذه حالها لا يمكنها أن تقيم حقاً أو تدفع باطلا . وذلك لانها إنما قامت على أساس أرضاء شهوة أو قضاء لذة أو أشباع هوى ولانها لم تأت إلى الحكم إلا عن طريق القوة والقهر والظلم والاستبداد . فهي بعيدة عن العدل بعد العيوق . بل لا يصح عقلا أن تؤثر عدلا أو أن تفكر فيه .

ولا أمن إذ أن من الطبيعي أن دولاً تشغل بالحروب والفتن لا يمكن أن يسودها الأمن أو يجد إليها سبيلا .

فتوالت الازمات الاقتصادية وعم الجدب وأنيخ المحل وحلت المجاعات فأهلكت الحرث والنسل وباء الناس بوباء مبيد وحياة ملئها الفقر والفاقة ونكد العيش وضنك الحياة . ويقول الدكتور طه حسين في كتابه السابق (ص ٧٢) نقلا عن كتاب عبد اللطيف البغدادي عن مصر وما شاهد فيها . انه لو أراد أن يحدثنا عن مجاعات بغداد وأزمات القاهرة تلك التي كانت تضطر الناس إلى أكل الكلاب والميتة وان البعض من الناس صار يتخذ من البعض الآخر طعاماً له وانهم كانوا يضعون الشباك والاشراك في الطرق والدروب والحارات يصطادون بها الاطفال الضعفاء ويتخذون منهم لحم شواء) لخاف عاينا من الهول والفزع مم يعود الدكتور فيشك في صحة ما ذكره وأنه مبالغ فيه .

الحياة الدينية :

جاء النبي (ص) إلى هذا العالم بالشريعة السمحة السهلة يهدي الناس ويرشدهم إلى طريق الحق بلسان عربي فصيح مبين فكان الصحابة الكرام يتلقون منه الاحكام ويهتدون بهديه ويستنون بسنته . من غير ما حاجة إلى تأويل أو تفسير أو تصديق أو تكذيب أو جرح أو تعديل . إلا ان هذه الشريعة الغراء بتعاقب الأجيال عليها وإبسعة الفتوحات ودخول العناصر المختلفة فيها . ولانتشار العلوم والفلسفة لهذه الأمم المفتوحة أخذت تتأثر شيئاً فشيئاً بهذه الفلسفة وتلك العلوم .

فأصبحت الشريعة غير تلك الشريعة التي كانت على عهد النبي [ص] كل ذلك بما أدخله علماء السوء فيها اولئك الذين أضاعوا الدين وأظهروا البدع وأماتوا السنة وأحيوا الفساد وأدخلوا

في الدين ما ليس منه . فتأولوا القرآن وحرفوا السنة تزلفاً للأمراء وتلبية لتطمين رغبات الحكام طمعاً في حظوة مرموقة أو منصب رفيع . وظل هذا شأن الحياة الدينية يسير من سيء الى أسوء حتى جاء عصر أبي العلاء . فكانت هذه البدع قد تكامل شأنها وقوى سلطانها فظهرت المذاهب الاسلامية . وسدباب الاجتهاد وأبيح الخمر وأجيز اللواط وحل القمار . وانتشرت مقالات الالحاد والزندقة وظهر التجسم والقول بالحلول والتناسخ مما أدى إلى اختلاف الآراء وتضارب الأفكار مما ادخلته عليهم الفلسفة اليونانية والرومانيـــة وما انتجته فلسفة الفرس وما انتجه المبطلون مما لا اثر له في الكتاب ولا السنة . فأصبح بعض المسلمون في ذلك العصر لا يعرفون من الدين إلا الاسم ولا يدرون منه إلا المظهر او المراسم . متخذين منـــه لوناً يميزهم ووسيلة تمكنهم من اكتساب الحياة الاسلاميـة من ارث او زواج او عتاق او طلاق .

وأصبح الدين اثراً اضعف من أن يتغلغل في القلوب أو يبلغ الضمائر . وصار يحكم الأبدان من غير أن يتمركز في القلوب . مما ترك لؤلؤاً ينتصب زوج صالح بن مرداس . وجعل قرواشا يجمع بين الأختين ويحرج عن قتل البدوي دون الحضري فاذا سُئل عن ذلك أجاب (ما يُعبأ الله بهؤلاء) لذلك كله لا نعجب اذا وجدنا أبا العلاء يتبرم برجال الدين وينقم عليهم ويصب جام غضبه واحتقاره عليهم فيقول :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت
ويهود حارت والمجوس مضلله
صنفان اهل الأرض ذو عقل بلا
دين وآخر دين لا عقـل له .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية في عصره

ما صلاح الحيـاة الاجتماعيـة في مجتمع من المجتمعات إلا بصلاح الحالة السياسية والاقتصادية والدينية لأن الحياة الاجتماعية ما هي إلا مجاميع هذه الحالات الثلاث . فاذا قامت في المجتمع سياسة حكيمة وعدالة شاملة ونظام اقتصادي رصين سارت الحيـاة الاجتماعية قدماً في سبيلها نحو الرقي والكمال وسعدت الأمـة جمعاء . واذا فقدت هذه بأن اختل الأمن واضطربت الحيـاة السياسية وتبلبلت الحالة الاقتصادية وضعف الوازع الديني وصار اثراً بعد عين فهنالك الويل والثبور .

يحل التقاطع والتدابر والتطاحن والتناحر وتنفصم عرى الاخاء وتنحل أواصر المودة . فينقبض ظـل الفضيلة ويقوى سلطان الرذيلة وتنحط الاخلاق وينهار المجتمع .

وحيث علمت فساد لهذه الحالات الثلاث فعليك تقـدير فساد الحياة الاجتماعية في ذلك العصر .

حالة المرأة في عصره

كانت المرأة في عصر أبي العلاء في أحط منزلة وأدنى مقام فهي محجوبة في غياهب الجهل والخمول تحوطها هالة من الرقيق والأماء والجهل والشقاء . لا تعرف للعلم معنى ولا تفهم من الآداب لوناً . قابعـة في عقر بيت ملئه الفقر والجهـل والمرض والانشقاق والبغضاء . وهـذا عامل من عوامـل فساد الحيـاة الاجتماعية . وفي هذا العصر تمت عملية المزج التي ولدتها الفتوحات الاسلامية وكثر الغلمان والجواري في القصور كما كثر التسري من الرقيق والاماء لدى الامراء وعليـة القوم ، مما أدى الى اختلاف الابناء وان كانوا لأب واحد . وصار تعدد الزوجات سبباً من اسباب التنافس والاختلاف فكان الرجل يجمع بين زوجتين فارسية وعربية وبين امتين تركية ورومية . فيأتيـه ابناء مختلفون في الطباع والاخلاق والعقليات والميول . كما أن تعـدد الزوجات والجمع بين الحرائر والاماء من اعظم عوامـل تفسخ العائلة وانحلال رباطها . ذلك لان الحرة في مثل هـذه الحال لا يمكن ان يكون في قلبها الحب الصادق لزوج يقـدم عليها الأمة أضف الى ذلك عوامل الغيرة في النساء بعضهن من بعض والنفورة بين الضرائر ولبنائهن وجفوة كل ابن الى امه مما يجعل الأسرة جمعية متفككة بل متناحرة . فالغرض المطلوب منها ومن مجموع الاسر تكون المجتمع .

بغداد (يتبع) شمس الدين الخطيب